المثل العليا

في الشعر

لعبد الرحمن شكري

كان من خصائص نهضة الاحياء التي حدثت في اوربا بعد العصور الوسطى البحث والتقصي والطموح الى العرفان واختبار الحياة في حالاتها المختلفة وكشف خفاياها وقد ظهر اثر ذلك في الشعر وفي آداب عصر الاحياء على وجه التعميم وقد ازدهر هذا العصر في عهد الملكة اليصابات في انكلترا وظهر اكبر شاعر عُرف يبحث النفوس ووصف احاسيسها وخواطرها على طريقة شعر القصص التمثيلية وأعني به شكسبير ويصح ان يسمى هذا العصر العصر الروماتيكي الاول فقد قضى على التزام محاكاة المذهب الكلاسيكي [1] القديم في القيود التافهة وكانت تلك المحاكاة قد قضت على روح المذهب الكلاسيكي الحقيقي بمغالاتها في اتباع ظواهر الامور دون حقيقتها وكان في بعض حرية آداب الرينسانس (عصر الاحياء) شطط في اصول الفن فلما جاء عصر النقد الفني وجدت جذوة عصر الاحياء عادت النفوس الى محاكاة طريقة الاقدمين الكلاسيكية في عهد رامين وكورني وأشباههما وذاعت هذه الطريقة في القرن الثامن عشر وهو عصر النقد والمنطق والاباقة الشكلية بين رواد الفنون الا ان نهضة القرن التاسع عشر في اوربا أوجدت حرية وروحاً هما شيمان بالحرية والروح اللتين كانتا في الآداب في عصر الرينسانس عصر الاحياء والتجديد الاول فذاع المذهب الروماتيكي في آداب الفنات وشعب شعباً كثيرة .وكان من خصائصه ايضاً البحث والتقصي واختبار الحياة وكشف خباياها والطموح الى العرفان وهذه هي المُثُل العليا في ذلك المذهب الروماتيكي.وقد كان فاوست بطل قصة جوتي في العصر الروماتيكي الثاني هو بطل قصة فاوست تأليف مارلو الشاعر الانكليزي المعاصر لشكسبير.ولم يأت هذا الاتفاق عفواً ، بل كان اتفاقاً بين العصرين في المُثُل العليا وأعني بها الرغبة في كشف خبايا الحياة واختبار أسرارها والطموح الى العرفان ومصادر القوة فيها وكلا الشاعرين يعترف بما في هذه المثل العليا من خطر قد يؤدي الى شر كما ظهر في حياة فاوست بطل القصة ولكن

---

(١) كان يجانب الاقتداء ومحاكاة المذهب الكلاسيكي في اواخر القرون الوسطى مذهب شعراء الرومانس والتروبادور وهذا كان في الحقيقة مبشراً مبكراً جاء يبشر بنهضة الاحياء

هذا لا يمنع من عد هذه المثل العليا ايضاً منبع الخير ووسائل الرقي في الحياة. وقد كان الطموح الى العرفان والقوة وكشف خبايا الحياة ومعالجة اسرارها المثل الاعلى ايضاً في كل حضارة قديمة او حديثة ولولا ذلك ما قامت الحضارة في عهد قوتها وعهد ازدهارها في حياة البابليين او المصريين او الاغريق أو الرومان او الفرس او العرب. وظني ان اتفاق روح أدب جوتي وبيرون في هذه الامور كان سبباً من الاسباب التي قربت بين الشاعرين وادت الى العطف والتآسل على اختلاف طريقتيهما وتفاتيهما في امور اخرى فان أدب جوتي يعبر عن هذا الطموح الى القوة والعرفان في فاوست كما يعبر عنها في ولهلم مايستر بمعالجة الحياة ومزاولتها والتثقف بما في هذه المزاولة من ثقافة وبيرون ايضاً يعبر عن تلك الروح الثائرة الطامحة الى القوة والعرفان والى كشف خبايا الحياة بمزاولتها والتقلب في وجوهها وليست رحلات تشايلد هارولد ودون جوان واختبارهما للحياة في احوال مختلفة وإباؤهما الاستقرار على حالة واحدة الا مظهر تلك الروح التي ابتت في اوربا جميعها في القرن التاسع عشر ولعل هذا هو السبب في ولوع غير الانكليز من الاوربيين بشعر بيرون اكثر من ولوعهم بشعر غيره من الشعراء الانكليز وهذه الروح شائعة في شعره كله فهي في قصة كين ومانفرد وورنر ومازيبا وغيرها. وقد عبّر شلي ايضاً عن هذه الروح التي كانت أساس صداقتهما، عبر عنها، في قصة (روميث الطليق) و(الاستور) وغيرهما وقد استشهد العلامة وايتهد في كتابه (العلم في العالم الحديث) بفقرة من شعر شلي للدلالة على انه كان مولعاً بتقصي حقائق العرفان بالرغم من اسلوبه الخيالي. وهذه المثل العليا كانت شائعة ايضاً في شعر تنيسون وبروننج وفي قصص إبسن الكندناوي او قل هي أساس الآداب الاوربية الحديثة بالرغم من اختلاف مظاهر مذاهبها حتى ان الرمزية في اول امرها قبل أن تُطلَب الرموز لذاتها واللذة التأمل فيها كانت تستخدم لتوضيح هذه المثل العليا فإبسن في قصة (براند) يرمز الى تسلق براند للجبل وحثه القوم على التسلق. وشلي في قصيدة (الاستور) يرمز بركوب الاستور البحر وانطلاقه فيه الى الرغبة في كشف خبايا الحياة والكون وكشف المجهول من اسرارهما وقبلهما كان جوتي ايضاً يستخدم الرمزية على الطريقة المسماة (الليجوري)

وقد تأثرت عند دراسة هؤلاء الادباء والشعراء بهذه الروح واعني روح الطموح الى العرفان وكشف خبايا الحياة والتمست معيناً على ذلك في كل ناحية من نواحي الآداب التمستُ في وصف شكسبير وبروننج للنفوس، وفي وصف النفوس والحياة في قصص كبار القصصيين، وفي كلمات المفكرين في كلمات قصيرة، كما التمستُ في الخيال الروماتيكي الطليق الذي يعبر عن هذه الروح على الطريقة الخيالية الروماتيكية. وهذا هو السبب في ان جانباً من قولي يمثل الخيال وجانباً آخر يمثل التحليل

النفسي ومظاهر النفوس في الحياة لا على طريقة اميل زولا والمذهب الطبيعي فليس في اميل زولا تحليل للنفوس ولا خبرة بحكمتها وفلسفتها بل على طريقة شكسبير وبروتنج في الشعراء وديكنز وثاكري وبلزاك وانا تول فرانس وفلوبير وموباسان وتلستوي وترجنيف وغيرهم . وقد ظهر الجانب الاول اي جانب الحيان الروماتيكي الذي يصف الطموح النفساني في قصائد عديدة منها قصائد الباحث، والابد في ساعة، والكونين، وابناء الشمال، وشهداء الانسانية، والعصر الذهبي والمثل الاعلى، والى المجهول، ومصارع النجباء، والبطل المنتظر، وثورة النفس، وجهاد المصلحين، وصيحة المصلح وسنة العيش وغيرها فمن قصيدة الابد في ساعة : —

آه من لي بساعة أتقصّى كل معنى فيها وكل بيان
ساعة أجرع الحياة رحيقاً ثم أظمى لسؤر ما في الدنان
ساعة اجتني الوجود وما كا ن وما قد يكون في الاكوان

ومنها : —

انا فيها كالعيش والموت والدهـــر وحكمي وحكمها سيان
أنا فيها أقوى من العيش والمو ت وأقوى من محكم الايمان
احمل النفس في يدي مثلما يد لف في الحرب فارس بسنان

ومن قصيدة بين الثريا والثرى :—

كأننا قد قطعنا الدهر نهباً من الآباد للازل القديم
وحوّلنا العوالم كأس لب حسوناها ولم تك من كروم
ولم نبأ بما تخفي الليالي ولم نخش المنية في الهجوم
وأسلفنا الزمان نعيم عيش ولم نحذر مقاضاة الغريم
وكنا في ائتلاف الشمل نحكي نظام الشهب والدر النظيم

وقصيدة شهداء الانسانية وموضوعها ان شهداء الحياة والعلم والاصلاح يزدحمون على باب الحياة ويسألون كل حالك هل تحقق الخير الذي بذلوا حياتهم من اجله فتدركه الحيرة ايكذب كي يدخل على قلوبهم الاطمئنان ، ام يصدق فينجعهم في آمالهم ام يغريهم بالصبر الطويل كسير الاحياء، ام يغريهم بالعودة ان استطاعوا الى كفاح الحياة. ومنها : —

فيا عيش الورى ماذا تراه يقول لهم اذا الفي مقالا
ومنها : — يقول لهم اذا استطعتم عودوا دفعاً للتوائب او صيالا
وكم من نفسة لولا شقاه قديماً لم تكن إلاّ وبالا
فكم خير الاوائل من شقاه فنلنا من شقائهمُ نوالا

ومن قصيدة النشوء والارتقاء : —

بعقل يلمح الشمس واقصى الكون عرفانا
وجدتَ لكل ما كان من الاكوان ميزانا
كأنك خالق الخلقيـــن اكواناً وازمانا
وسخّرت الرياح مطيـــة والبرق فرسانا
وقد أعليتَ عمراناً وقد قدّستَ اديانا

الى:—

وفقتَ الطير والحيوان آثامـــاً وأشجانا
وزنت الذرة الصغرى وما اعددت ميزانا
لعيشك كي يكون العيـــش إسعاداً وإحسانا

وقصيدة العصر الذهبي وقد اولع الناس من قديم الزمن بالتفكير في عصر الامنية السعيد عصر الخير العميم الشامل فبعضهم كان ينشده في الزمن القديم ويبكي انقضاءه وبعضهم ينشده في المقبل من العصور. وكثيراً ما استخدم اهل الحرص شعاره لنيل اطماعهم واقتياد الناس بذلك الشعار. وكثيراً ما علق الناس بكلاله حتى اذا تحكموا ساروا على نهج الطغاة وهو مثل عالٍ لا تحلو الحياة الا به ومنها : —

عصر السلام تحية وسلامُ خلعتْ عليك رجاءها الاقوام
من كل عصر في نسيجك لُحْمَةٌ ألاجل صنعك تدلف الاعوام

ومنها :

تتبر المُثُلُ التي شاقتهمُ تتبـــدّل الآمال والاحـــلام
حَسْبُ الورى من حسن عهدك قدوة علياء ما إنْ شانَها استبهام
ما فاتهم طب الطبيب وانمـــا تتباين الارواح والافهـــام

ومنها : —

واذا العبيدُ تحكموا في قتـــة ساروا على نهج الظلوم وضاموا
أترى العبيد يابلٍ وبطيـــة اغرتهمُ بكمـــالك الآلام
لو انهم ملكـــوا لعافوا مـــلكاً يدني اليك وطاشت الاحلام

وقصيدة قوة الفكر في تقديسها وقد قيلت على لسان حالها . ومنها : —

ألوي برب الفكر عن ذويه وأذهلُ العازم عن اخيه
طوراً وطوراً راحة وسلما اجير عظماً وأهيض عظما

ومنها :—

ورب غرٍّ كان عبد غره زوّدته من خبره وشره
كان صغيراً فغدا عظيما كان يرى عيش التصى ألما
رفعته عن لذة وألم فصار ناراً أضرمت في علم
مشتهراً بين الانام مُعلّما مبغّضاً طوراً وطوراً مكرما

ومنها :—

كم حقبة قد اختمرتُ فيها وكان طعمي قبلها كحربا
اقوى على الايام والدهور كما صفت عتيقة الخمور
والناس قد غرهمُ خودي وهم على غرتهم وقودي

وقصيدة (الشباب) توضح ان مستقبل الانسانية رهن بطموح الشباب الى المُثُل العليا وبان يحاول ان يقهر طاغوت الامور وجبروتها وأنْ :—

يستنفذ الازمان من عبث الورى ويُطهّر الاجشاء من ادران
ويذلّ طاغوتَ الامور فيحتذى شرعُ الحياة شريعةَ الرحمن

وقصيدة (نحو الفجر) وقد جُعل الفجرُ في آخرها رمزاً لآمال الانسانية :—

وامّلتُ للدنيا صباحاً مؤجّلا سيكشف عنها ظلمة الضيم والشر
فكل صباح رمزهُ ومثاله ووعد به يحدو الى الزمن النضر
نُسَرُّ بنماهُ وان لم تكنْ لنا وتنشدهُ فيما يكون من الدهر

وقصيدة (الباحث) او الباحث الازلي تعبر عن هذه الروح روح الطموح الى الرقان وكشف خبايا الحياة والشيخ الخالد فيها رمز الى روح الانسانية التي تختبر الحياة دهراً بعد دهر وحالاً بعد حال ومنها :—

همتُ يوماً من فريق الشد الحق لمسلي اراه في الدهماء
كلما لاح شامخ قلت ان الحق يغدو من خلفه بازائي
ورعيتُ الظلماء علّني أراه خارجاً من سرائر الظلماء
وجزعت الصحراء ارجو لقاه منهُ يُرجى في وحشة الصحراء
ولكم غُصتُ في العباب عليه انما الدر منهُ في الاجشاء
وأثرتُ الاصداء أبغي جواباً لسؤالي في منطق الاصداء
وسألت الرياح عنهُ فصمّتْ عن دعائي فلا تجيب دعائي
وسألتُ السماء تبرز وجهاً منهُ يبقى في الأفق جم الضياء

وأعارتني الطيور جناحاً ارتجي منه لقية في الفضاء
طالما خاب ناشد الحق لكنْ رجائي كما عهدتُ رجائي
قد يجيء الصباح منهُ بوجه طالما كان مضمراً في الخفاء
او تبين الاحلام منهُ ضياء في سماء الآمال مثل ذكاء

الى : —

أنشد الحق بالتقلب في العيش وأبغي سريرة الاشياء

وقصيدة (المثل الاعلى) تصف ذلك الطموح بخيره وشره فانهُ قد يكون سراباً خداعاً وقد يكون ماء

طوراً كما رقص السراب وتارة يُشفى به من غلة وأوام

وقد تسوق الرغبة في تحقيقه الى الآثام : —

ولطالما خاض الفتى من أجله كيما يكون زواخر الآثام
أقسى القساة من استبدَّ به الحجا فتنكّبا عن السرات والآلام

وفي بعض الأحايين يمنع الولوع بمثاله من معرفة الحياة واختبارها ومعالجتها فيصير قذى في العين واختلالاً في العزم وسقماً في الرأي والنفس : —

ولقد يعود قذى يصيب به العمى فينال من عزم ومن إقدام
كالثار يهلك حرها وضباؤها يُشفي وفيها من هُدًى وقرام

فان نبذ مثل الكمال العليا يؤدي أيضاً الى الشر : —

والمرء إن نبذ الكمال وهديهُ شقَّ العصا وأحلَّ كل حرام
ورأى الآثام فريسة مذخورةً لموفقٍ في شرّه عزّام

وخيال المثل الاعلى من العقل والعقل حقيقة الحقائق : —

ما في الوجود حقيقة غير الشهى فاطمح بنفسك للذرى والهام
أتنال اوهام الحقائق قانعاً وتعاف خير حقائق الأحلام
والعيش انْ لم تبغِ فيه لطيفة فالعيش حُلْمُ طوارق الاعوام

ولا تعظم النفس الاَّ بالمُثُل العليا : —

والنفس إمَّا شئت كانت عالماً يسع الدنى في طوله المترامي

ولا يستطيع المرء ان يرفض المُثُل العليا لانهُ يعرف حدود وفي الانسانية في المستقبل : —

لو كنتَ تعرف قدرَ مقبل علمها او جهلها لكشفتَ كل تمام

والمرء يُضْمِرُ للبعيد مهابةً فاذا دنا ألْفَاهُ حظَّ طغام

وهي قصيدة طويلة يُنْظَرُ فيها الى نشدان المُثُل العليا نظرات مختلفة متعددة كهذه النظرات وامثالها. وقصيدة (الى المجهول) تصف طموح النفس الى كشف خبايا الحياة ومغاليق الأمور فهي ايضاً تمثل الروح الحديثة في الادب ومنها: —

قد ثار ثائر نفس عزَّ مطلبها وطار طائر لب في مراقيهِ
كالنسر لا حاجب للشمس يردعهُ ولا الصواعق والارواح تثنيهِ
وانتَ كالليل والافهام حائرة مثل العيون علاها منك داجيهِ
ليلٌ مهيب كموج البحر حندسه تكاد تسمع منهُ صوت طاميهِ

وقصيدة (ثورة النفس) تعبر أيضاً عن هذه الروح. ومنها: —

ويا حسن ما تُمْلي الخيالات انها خَلِيٌّ على جيد من الدهر أجربُ
تُريدين أنَّ الجسم يغدو كأنما يضيء به مثك الضباب المحبَّبُ

ومن قصيدة (الشاعر وصورة الكمال): —

صورة حسن صاغها لهُ وحدُّها في الحسن حدّ الكمالْ
يعد نحو النجم كفاً له ويحسب النجم قريب المنالْ

ومن قصيدة (جهاد المصلحين): —

خليليَّ هذا الكون من أولياتهِ أأصلحهُ في العاملين طبيبُ
وكم من نفوس ساميات أذلَّها فعادت بادناس الحياة تطيبُ
ترى دنس الاشياء رؤية آلف يرى ان احلام النفوس لنوبُ
يرى ان خير الكون ما هو كائنٌ ووحيَ النفوس الساميات مريبُ
ويحسب ان الشر ضربة لازب وان أساليب الحياة ضروبُ
ويصحح في مجرى الحوادث ريشة عجوب به الايام حيث تجوبُ
ويطفىء نور النفس حتى كأنما دواعي النفوس الساميات عيوبُ

وقصيدة (الكونان) في وصف الطموح الى حياة ارقى من الحياة وعيش ارقى من العيش: —

خارجاً منهُ مثلما تُخْرِجُ الليلةُ الضُّحَى

فروح البحث والتقصي والطموح الى كشف مغاليق الحياة والخليقة والى المثل العليا للحياة هي الروح الغالبة على المذهب الرومانتيكي وهي الروح التي تأثرها وتأثرت بها وهي شائعة بمقادير مختلفة في اكثر ما نظمت